الرحلات العلمية وأثرها في التدوين
دراسة في منهج الخطيب البغدادي
(ت ٤٦٣هـ) في كتابه
(الرحلة في طلب الحديث) أنموذجاً

Scientific Journeys (Al - Rihla) and Their Impact
on Documentation: A Study of Al - Khatib Al - Baghdadi's
Methodology (d. 463 AH) in His Book
Al - Rihla fi Talab al - Hadith as a Model

الأستاذ الدكتور عبد الله خلف عبد

Prepared by

Professor Dr. Abdullah Khalaf Abd

الجامعة العراقية / بغداد

abdullah.kh.abd@aliraqia.edu.iq

07706937283

مجلة العلوم الإسلامية
المجلد 5 | العدد 43
www.isscj.edu.iq

Journal of Islamic Sciences
Vol.5 | Issue 43
ISSN: 2225-9732
August 2026

ملخص البحث

يتناول هذا البحث أثر الرحلات العلمية في نشأة التدوين الحديثي وتطوّره، مع التركيز على منهج الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) في كتابه الرحلة في طلب الحديث باعتباره من أهم المصادر التي أرّخت لظاهرة الرحلة وأبرزت قيمتها المنهجية والمعرفية، واعتمدت الدراسة المنهج التحليلي الوصفي، وخلصت إلى أنّ الرحلة كانت أداة تأسيسية في صناعة علم الحديث، وأن الخطيب جمع مادته موظفاً منهجاً نقدياً، تاريخياً، وسندياً جعل كتابه مصدراً في فقه الرواية ومنهج المحدّثين.

شكّلت الرحلة أحد أهم المعالم الحضارية في تاريخ العلوم الإسلامية، فقد ارتبطت بطلب العلم، وبخاصّة علم الحديث، ارتباطاً وثيقاً جعلها إحدى الدعائم الرئيسة في توثيق السنة النبوية، وتحرير طرقها، وتمييز صحيحها من سقيمها.

ومن بين المساهمين في إبراز قيمة الرحلة العلمية الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، صاحب المؤلفات الحديثية التاريخية التي عُدّت مرجعاً في معرفة مناهج المحدّثين.

يهدف هذا البحث إلى دراسة الرحلات العلمية وأثرها في التدوين، مع تحليل منهج الخطيب البغدادي في كتابه الرحلة في طلب الحديث، وبيان ما يبرزه من قواعد نقدية وتاريخية.

Abstract:

This research examines the impact of scientific journeys (Al - Rihla) on the emergence and development of Hadith documentation, focusing on the methodology of Al - Khatib Al - Baghdadi (d. 463 AH) in his book Al - Rihla fi Talab al - Hadith (The Journey in Pursuit of Prophetic Traditions). The book is considered one of the most vital sources documenting the phenomenon of scientific travel and highlighting its methodological and epistemological value.

Adopting a descriptive - analytical approach, the study concludes that Al - Rihla served as a foundational mechanism in shaping the field of Hadith studies. Furthermore, it demonstrates that Al - Khatib compiled his material by employing a critical, historical, and chain - of - transmission (isnad) methodology, establishing his work as a primary reference in the jurisprudence of transmission (Fiqh al - Riwaya) and the methodology of Hadith scholars.

Scientific journeys constituted one of the most prominent civilizational landmarks in the history of Islamic sciences. They were closely tied to the pursuit of knowledge, particularly the study of Hadith, becoming a primary pillar in documenting the Prophetic Sunnah, refining its chains of transmission, and distinguishing the authentic from the weak.

Among the key scholars who emphasized the value of scientific travel was Al - Khatib Al - Baghdadi (d. 463 AH), whose historical and Hadith - related works are regarded as foundational references for understanding the methodologies of Hadith scholars.

This research aims to investigate scientific journeys and their impact on documentation, while analyzing Al - Khatib Al - Baghdadi's methodology in his book Al - Rihla fi Talab al - Hadith, demonstrating the critical and historical principles it highlights.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد؛

تُعدّ الرحلة في طلب العلم من أبرز مميزات الحضارة الإسلامية، وأسهمت بصورة مباشرة في حفظ العلوم وتدوينها، ولا سيما علم الحديث النبوي الذي ارتبط بجملة من الأصول المنهجية، من أهمها السماع المباشر واللقاء الشخصي بالأئمة والرواة، وقد أفرد الخطيب البغدادي كتابًا خاصًا بالرحلة في طلب الحديث، جمع فيه نماذج من سير المحدثين ورحلاتهم، وبيّن أثر ذلك على ضبط الرواية ونقدها.

ولقد كان العلماء قديما يحرصون ويتطلبون مثل هذه الأماكن المهيأة للعلم حتى ولو شطت ونأت وتباعدت، وما الرحلة في طلب العلم والحديث إلا خير شاهد على هذا بل ربما ترك أحدهم مسقط رأسه ومحلة قومه، ورحل إلى بلد يبقى فيه حتى يموت، كما حصل لجماعة من العلماء منهم معمر بن راشد البصري فإنه من الطارئين على اليمن لكنه طاب له المقام فيها فبقي فيها حتى توفي [1].

نسعى في هذا البحث إلى إبراز أثر الرحلات العلمية في تكوين العلم الشرعي وتدوينه، مع تحليل منهج الخطيب في كتابه وإبرازه نموذجًا أصيلًا في هذا المجال.

مشكلة البحث

إن القارئ لتاريخ طلب العلم وتدوينه ليعجب من هذه الهمة العالية عند علماء المسلمين وهم يشمّرون عن ساعد الجد باذلين الغالي والنفيس من أموالهم وجهودهم وأوقاتهم، فما وصلنا اليوم من كنوز تراثنا الإسلامي هو ثمرة لهذه الجهود المباركة.

لكن ما نراه اليوم من تقاعس شبابنا عن السير على خطى أولئك الرجال وضعفهم عن الانتقال والرحلة في طلب العلم - حتى على مستوى البلد الواحد والمدينة الواحدة - يعد مشكلة أساسية

(١) سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ). المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م، ٧ / ١٠.

ينبغي أن نقف عندها، ونشخصها ونضع الحلول لها، ولا أنسب وأنجع من العودة إلى هذا التراث عن طريق قراءة الكتب التي اهتمت بالرحلات العلمية والوقوف عند نتائجها، خاصة اذا كان مؤلفوها ممن كان لهم باع طويل في الرحلة وممن وقف عند أصحابها بنقل سيرهم ورحلاتهم أعني به الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) في كتابه الرحلة في طلب الحديث.

أسئلة البحث

- ما هو مفهوم الرحلة العلمية ؟

- كيف أسهمت هذه الرحلات في تدوين العلوم – خاصة الحديث النبوي والتاريخ الإسلامي - ؟

- ما أهمية كتاب الرحلة في طلب العلم للخطيب البغدادي في جانب التدوين العلمي ؟

أهداف البحث

إبراز تاريخ الرحلات العلمية في التاريخ الإسلامي وتذكير وحث أبنائنا وشبابنا على السير على خطى هؤلاء العلماء ومن ثَمّ بث روح الحركة والرحلة والانتقال لتحصيل العلوم .

أهمية البحث

للبحث أهمية علمية وتطبيقية: فهو يتناول واحدا من أهم كتب الرحلات العلمية وما حواه من معلومات يعد كنزا ثمينا، وفي الجانب التطبيقي فإننا نقف عند الجهود العلمية الكبيرة التي أسهمت في التدوين فنحن أمام خارطة انتقل عبرها العلماء قاطعين الفيافي والأمصار من أجل الحصول على المعلومة وتدوينها.

منهج البحث:

المنهج الاستقرائي والتحليلي المقارن: حيث نقف على مفهوم أهمية الرحلة العلمية عند المسلمين، وتتبع المعلومات التي أوردها الخطيب وبيان أهميتها في التدوين العلمي.

المبحث الأول: الإطار النظري للرحلة العلمية

المطلب الأول: مفهوم الرحلة العلمية ونشأتها وتطورها في الحضارة الإسلامية.

لغة: رَحَلَ عَنْ الْبَلَدِ رَحِيلًا وَيَتَعَدَّى بِالتَّضْعِيفِ فَيُقَالُ رَحَّلْتُهُ وَتَرَحَّلْتُ عَنْ الْقَوْمِ وَارْتَحَلْتُ وَالرِّحْلَةُ بِالْكَسْرِ وَالضَّمُّ لُغَةٌ اسْمٌ مِنْ الِارْتِحَالِ وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ الرِّحْلَةُ بِالْكَسْرِ اسْمٌ مِنْ الِارْتِحَالِ وَبِالضَّمِّ الشَّيْءُ الَّذِي يُرْتَحَلُ إلَيْهِ يُقَالُ قَرُبَتْ رِحْلَتُنَا بِالْكَسْرِ وَأَنْتَ رُحْلَتُنَا بِالضَّمِّ

أَيْ الْقَصْدُ الَّذِي يُقْصَد [١] .

اصطلاحا: الرِّحلة هي الارتحال والشخوص من أرض إلى أرض[٢]، و الرحلة العلمية هي انتقال العلماء وطلبة العلم لأجل تحصيل العلوم ومقابلة مَن هو أعلم منهم والأخذ عنه، ولا يستغني عنها العالم فإنها تزيد في مدارك العالم الفقيه المحدث وبها تتلاقح الأفكار وتستقيم الآراء [٣].

والرحلة في الاصطلاح الحديثي هي: سفر الطالب أو المحدّث إلى البلدان لتحصيل الحديث سماعاً أو إجازة أو مناولة من أهله، طلباً لعلو الإسناد أو زيادة العلم أو ضبط الرواية، او هي الخروج إلى الأمصار لملاقاة الشيوخ، و أخذ الحديث عنهم بأحد طرق التحمّل المعروف [٤].

وقد كانت الرحلة في طلب الحديث من لوازم طريقة المحدثين ومنهجهم في التحصيل العلمي، قال الحافظ ابن الصلاح: «وإذا فرغ من سماع العوالي والمهمات التي ببلده فليرحل إلى غيره»[٥]، نعم: فليرحل بصيغة الأمر وذلك لما لمسوه من فوائد الرحلة وآثارها النافعة في تكوين المواهب الشخصية، وتنمية المدارك العلمية وتوسعة الآفاق الفكرية، والتطاعم بين العقول والمعارف وأهليها فلذا أقاموها مقام الحاجة الضرورية لمن سلك طريق العلم والتحصيل، واعتبروها شرطاً لتوثيق العالم والثقة بعلمه.

فنشأ من ذلك هذه الرحلات الواسعة، والأسفار الشاسعة والسنوات الطوال تقضي من أعمار هؤلاء الراحلين، بعيدين عن الأهل والولد، والزوجة والبلد، متفرغين لتلقي العلم ولقاء العلماء، ومشافهتهم وتعرف ما عندهم، والانتساب إليهم، والشرب من معينهم .

---

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، ١ / ٢٢٢.

(٢) التعريفات الفقهية، محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، الناشر: دار الكتب العلمية (إعادة صف للطبعة القديمة في باكستان ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص١٠٣.

(٣) مبارق الأزهار في شرح مشارق الأنوار، ل عبد اللطيف بن عبد العزيز بن أمين الدين بن ملك المتوفى سنة (٨٠١) للهجرة، ماهر طاهر إسماعيل البرزنجي، المصدر: الشاملة الذهبية، ص١٦

(٤) ينظر: الرحلة في طلب الحديث، د. فاضل إسماعيل خليل، مجلة آداب البصرة، العدد (٣٨) السنة ٢٠٠٥م، ص٣١.

(٥) معرفة أنواع علوم الحديث، ويُعرف بمقدمة ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن، أبوعمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح (المتوفى: ٦٤٣هـ)، المحقق: نور الدين عتر، الناشر: دار الفكر - سوريا، دار الفكر المعاصر – بيروت، سنة النشر: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ص٢٤٦؛تدوين السنة النبوية نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع الهجري، أبو ياسر محمد بن مطر بن عثمان آل مطر الزهراني (المتوفى: ١٤٢٧هـ) - الناشر: دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص٣٩.

وقد صارت هذه الرحلات لدى العلماء السابقين جزءاً أصيلاً من حياتهم العلمية، فرحل العلماء من أهل كل علم، فرحل المفسر والمحدث، والفقيه والأصولي، واللغوي، والنحوي، والأديب، والمؤرخ، والزاهد، والعابد، والشاب، والشيخ، ورحَّلُوا معهم الوليد الذي دون أربع سنين أو ما فوقها، كما نراه في تراجم كثير من العلماء الكبار، ومنهم الإمام أبو سعد السمعاني، وقد لقي الرحَّالون في أسفارهم متاعب ومصاعب، وشدائد لا تحصى، دوّن عنهم بعضها، وذهب بعضها دون تدوين، فهذا الذي تراه في كتب التراجم من أخبارهم في الرِّحَلِ بعض ما كان وليس كل ما كان.(١)

المطلب الثاني: دوافع الرحلة في طلب الحديث

للرحلة في طلب العلم أسباب كثيرة من أهمها:

١ - في جيل الصحابة كانت لسماع حديثٍ لم يسمعه الصحابي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو للتثبُّت من حديثٍ يحفظه الصحابي وليس في بلده من يحفظه، فيشد الرحال إلى من يحفظه ولو كان على مسيرة شهر.

٢ - أما في التابعين فذلك بسبب تفرق الصحابة في الأمصار وكلٌّ منهم يحمل علماً من ميراث النبوة، فاحتيج إلى علمهم فرُحِل إليهم.

٣ - ظهرت أسباب أخرى فيما بعد هذين الجيلين من تلك الأسباب:

ظهور الوضع في الحديث حيث كَثر أصحاب الأهواء الذين انتحلوا أحاديث تؤيد أهواءهم ونسبوها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فنشط العلماء في الرحلة للتحقُّق من تلك الأحاديث ومعرفة مصادرها ومخارجها.(٢)

قال الشيخ عبدالفتاح ابو غدة: (وقد ساق الحافظ الخطيب البغدادي خبر جابر هذا - يعني حديث جابر في رحلته في طلب الحديث - في كتابه ((الرحلة في طلب الحديث)) من طرق كثيرة، وروى غيره من أخبار الصحابة الذين رحلوا في طلب الحديث، وكتاب ((الرحلة)) للخطيب كتاب نافع مهماز للمتخلفين عن الرحلة، فاقرأه لعلك ترحل)(٣)، فالرحلة لابد منها في

(١) رحلة العلماء في طلب العلم ماجد إسلام البنكاني، المصدر: الشاملة الذهبية، (ص: ١٥)

(٢) تدوين السنة النبوية نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع الهجري، ص ٤١ - ٤٢.

(٣) صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، عبد الفتاح أبو غدة الحلبي الحنفي (المتوفى: ١٤١٧ هـ)،

طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال، بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال [١]

وعنْ إبراهيمَ بنِ أدْهَمَ - رضي الله عنه - أَنَّهُ قالَ: ((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْفَعُ الْبَلَاءَ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِرِحْلَةِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ))[٢]، ودوافع علمية ومنهجية، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ: إِنْ كُنْتُ لَأَسِيرُ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِيَ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ الْوَاحِدِ[٣]، عَنْ بُسْرِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ الْحَضْرَمِيِّ، قَالَ: إِنْ كُنْتُ لَأَرْكَبُ إِلَى الْمِصْرِ مِنَ الْأَمْصَارِ فِي الْحَدِيثِ الْوَاحِدِ لِأَسْمَعَهُ [٤]، وطلب علو الإسناد، قال عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: طَلَبُ عُلْوِ الْإِسْنَادِ مِنَ الدِّينِ[٥].

وقد ذكر الحافظ الرامهرمزي في «المحدِّث الفاصل» قائمة بأسماء المحدثين الذين رحلوا في الأقطار ورتَّبهم على طبقات، فذكر أولاً من رحلوا إلى عدة أقطار، ثم ذكر من رحل إلى ناحية واحدة للقاء مَن بها من العلماء.[٦]

ومن أهم الأقطار التي كان يرحل إليها طلاب العلم: المدينة، ومكة، والكوفة، والبصرة، والجزيرة، والشام، واليمامة، ومصر، ومرو، والري، وبخارى وذلك لأنها مراكز العلم ويكثر فيها العلماء.[٧]

وكانت الرحلة تأخذ من عمر صاحبها السنتين والأربع، والخمس والعشر، وكثير منهم من أخذت الرحلة من عمره العشرين سنة، أو الثلاثين سنة، أو الأربعين سنة، وبعضهم أخذت رحلته خمسا وأربعين سنة من عمره، كالإمام أبي عبد الله بن منده، وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: (لا يطلب هذا العلم من يطلبه بالتملل وغنى النفس فليفلح ويبدأ بالسماع من أرجح شيوخ بلده إسنادا وعلما وشهرة ودينا وغيره فإذا فرغ من مهماتهم فليرحل على عادة الحفاظ المبرزين ولكن من طلبه بذلة النفس وضيق العيش وخدمة العلم أفلح)[٨]، أي لا يطلب هذا

الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة: الثانية مزيدة ومحققة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م، ١٩.

(١) صفحات من صبر العلماء، ص٢١.

(٢) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي، (ص: ٨٩)

(٣) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ١٢٧)

(٤) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ١٤٧)

(٥) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ٨٩)

(٦) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي الفارسي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: د. محمد عجاج الخطيب، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: الثالثة، ص٢٢٩ فما بعدها.

(٧) تدوين السنة النبوية نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع الهجري، ص٤٥

(٨) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١ هـ)، الناشر:

العلم من يطلبه بالتململِ أي بالتبرمِ وتقلب العزمِ وغنى النفس فيُفلحَ، ولكن من طلبه بذلةِ النفس، وضيق العيش، وخدمة العلم أفلح، وقد ذكر عبدالفتاح ابو غدة رحمه الله في كتابه صفحات من صبر العلماء ألوانا من التعب والنصب والرحلة في طلب العلم وقطع المسافات، وهجر النوم والراحة والدعة وسائر اللذات، وفي الصبر على شظف العيش ومرارة الفقر وبيع الملبوسات أو المفروشات. (١).

ومن فوائد الرحلة في الطلب: تحصيلهم للعلم، وتمكنهم من الجوانب العلمية، وتطبيقهم وعملهم بما علموا، ليصبحوا عالمين عاملين، عَنْ وَكِيعٍ، قالَ: ((إذا أَرَدْتَ أَنْ تَحفظَ الحديثَ فاعْمَلْ بِهِ)) (٢)، ونشرهم لما تعلموه من العلم في رحلاتهم، واتساعهم في الثقافة العامة، وذلك من خلال احتكاكهم بالناس أثناء رحلاتهم، ومعرفة ما لديهم من حكم وأمثال ونوادر، وما شابه ذلك (٣)، وثمرة ما تقدم هو تدوين العلوم وتوثيق ما حصلوا عليه في رحلاتهم، اذ انتفعت الأمة جيلا بعد جيل من هذه الثروة العلمية الكبيرة.

وقال الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى: وإذا عزم الطالب على الرحلة، فينبغي له أن لا يترك في بلده من الرواة أحداً إلا ويكتب عنه ما تيسر من الأحاديث، وإن قلت.(٤)

ونقل الشيخ عبدالفتاح ابو غدة قول ابن خلدون في ((مقدمته)) (٥): (الفصل الحادي والأربعون في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم، والسّبب في ذلك أنّ البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل: تارة علما وتعليما وإلقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة).(٦)

مكتبة الرياض الحديثة – الرياض، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، ٢ / ١٤١ - ١٤٢.

(١) صفحات من صبر العلماء، ص١١

(٢) شرح (التبصرة والتذكرة = ألفية العراقي)، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفى: ٨٠٦هـ)، المحقق: عبد اللطيف الهميم - ماهر ياسين فحل الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م، ٢ / ٤٣.

(٣) راجع عن أهمية الرحلة: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: د. محمود الطحان، الناشر: مكتبة المعارف – الرياض، (بَابُ الرِّحْلَةِ فِي الْحَدِيثِ إِلَى الْبِلَادِ النَّائِيَةِ لِلِقَاءِ الْحُفَّاظِ بِهَا)، ٢ / ٢٢٣.

(٤) رحلة العلماء في طلب العلم (ص: ١٦)

(٥) مقدمة ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ) ط١، مؤسسة الرسالة ناشرون(بيروت - ٢٠٠٧م) ص ٦٠٥.

(٦) صفحات من صبر العلماء لعبدالفتاح ابو غدة، ص٢١.

كان للرحلة أثرٌ في شيوع الأحاديث وتكثير طرقها، كما كان لها أثرٌ في معرفة الرجال بصورة دقيقة، لأن المحدِّث يذهب إلى البلدة فيتعرف على علمائها ويخاطبهم ويسألهم، ولذلك اتسع نطاق الرحلة [١].

المبحث الثاني: الخطيب البغدادي وكتابه الرحلة في طلب الحديث

المطلب الأول: ترجمة الخطيب البغدادي ومنزلته الحديثية

بدأ الخطيب - رحمه الله - بالجلوس إلى حلقات العلم في وقت مبكر وأخذ يتنقل من حلقة إلى حلقة يسمع من هذا الشيخ ويقرأ على ذاك، فسمع الحديث وأخذ الفقه والنحو وغير ذلك على كبار علماء بغداد في وقته حتى إذا صلب عوده أخذ يتطلع إلى طلب العلم على العلماء المقيمين خارج بغداد وخاصة المحدثين منهم فرحل في سبيل ذلك إلى الحجاز والشام ومصر والمشرق، وبعض هذه البلدان كرر الرحلة إليها رغبة في سماع العلم من علمائها، واهتم الخطيب كثيرا بالرحلة ولذلك أكثر من الرحلة في طلب العلم بل وألّف في ذلك كتابا سماه ((الرحلة في طلب الحديث))[٢]،

وعن نشأته وشيوخه ورحلاته، ومكانته في علم الحديث، هو العالم الفقيه والحافظ المتقن، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن المهدي، المعروف ب «الخطيب البغدادي». يُعدّ الخطيب البغدادي أحد أبرز أئمة الحديث ومصنفيه الكبار، ووصفه العلماء بأنه خاتمة الحفاظ والمحدثين المبرزين.

شهدت قرية (درزيجان) العراقية نشأته الأولى بعد ولادته يوم الخميس، لست ليالٍ بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٩٢ هـ. ترعرع في كنف والده الذي كان خطيباً لأحد مساجد القرية، فتولى توجيهه نحو حفظ القرآن الكريم أولاً، ثم ألحقه بمؤدب لتعلم مبادئ القراءة والكتابة.

بدأ رحلته مع سماع الحديث الشريف في سن الحادية عشرة، واتجه بعدها لدراسة الفقه. ومع بلوغه سن العشرين، وإحاطته الشاملة بمرويات وعلوم علماء بغداد، اعتزم الارتحال لطلب العلم خارج بلاده استناناً بطلب الخَلَف من المحدثين. وكانت وجهته الأولى مدينة أصبهان،

(١) تدوين السنة النبوية نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع الهجري، ص ٤٤.

(٢) الفصل للوصل المدرج في النقل، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: محمد بن مطر الزهراني، الناشر: دار الهجرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ١ / ٣٨

وجاء هذا القرار بعد استشارة شيخه «البرقاني» الذي شجعه على القصد إلى المحدث «أبي نعيم الأصبهاني» (صاحب كتاب الحلية).

وقد دعمه شيخه البرقاني برسالة تزكية بليغة وجهها إلى أبي نعيم، أشاد فيها بنباهة الخطيب البغدادي وعلمه، واصفاً إياه بأنه ممن له قدم راسخة وفهم ثاقب في هذا الشأن، وأنه حصل من العلم ما لم يبلغه أقرانه، متصفاً بالورع والتحفظ وصحة التحصيل. كما التمس البرقاني في رسالته من أبي نعيم أن يخصّه بعنايته ورعايته، وأن يتسع صدره لشغفه الكبير في الاستكثار من رواية الحديث وسماعه، سيراً على نهج السلف الصالح في إكرام وتفضيل طلاب العلم المجتهدين [١]، [٢].

وفي سير أعلام النبلاء للذهبي نقرأ: وَكَتَبَ الكَثِيْرَ، وَتَقدَّمَ فِي هَذَا الشَّأْن، وَبَذَّ الأَقْرَان، وَجَمَعَ وَصَنَّفَ وَصحَّح، وَعلَّلَ وَجرَّحَ، وَعدَّلَ وَأَرَّخ وَأَوضح، وَصَارَ أَحْفَظَ أَهْلِ عصره عَلَى الإِطلاَق[٣].

المطلب الثاني: التعريف بكتاب الرحلة في طلب الحديث

يركز الكتاب على مفهوم «الرحلة لأجل حديث واحد» وليس الرحلات العامة. وقد رتّب المصنف كتابه متدرجاً في عدة محاور:

المقدمة والتمهيد: بدأ ببيان فضل الرحلة لطلب العلم والحث عليها، مستشهداً بآيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وآثار عن كبار الأئمة والسلف تُبرز علو هممهم وصبرهم، وختمها بأبيات شعرية تحفيزية.

النماذج والقصص: استعرض رحلة نبي الله موسى عليه السلام مع الخضر كنموذج قرآني، ثم أورد قصصاً عن الصحابة والتابعين الذين سافروا أياماً ولياليَ من أجل حديث واحد أو تفسير آية.

(١) الاستفادة من مناهج المحدثين في عملية التعلم والتعليم الخطيب البغدادي أنموذجا (ص: ٥).

(٢) «معجم الأدباء» (١ / ٥١٢)، «سير أعلام النبلاء»، للإمام شمس الدين الذهبي، دار الفكر، ١٤١٤ - ١٩٩٤، (١٣ / ٥٩٤).

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٨ / ٢٧٠ - ٢٨٩، (بتصرف).

الخاتمة

اختتم الكتاب بذكر من سافر طلباً ل «علو الإسناد» (قصر سلسلة الرواة) من شيخٍ ما، لكن وافت المنية ذلك الشيخ قبل أن يدرك الطالب مراده.

والخلاصة: يستعرض الكتاب أهمية الرحلة العلميّة من أجل «الحديث الواحد»؛ حيث يبدأ بالحث الشرعي والشعري عليها، ثم يسرد نماذج تاريخية لرحلات الأنبياء والصحابة والتابعين، وينتهي بمن رحلوا طلباً لعلو الإسناد ولم يدركوا شيوخهم.(١) .

الرحلة في طلب الحديث الواحد: أفرد الخطيب البغدادي باباً خاصاً في مصنفه لمناقشة تضحيات الرعيل الأول من الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم - في سبيل تحصيل السنة النبوية، حيث أورد تحت عنوان «ذِكْرُ مَنْ رَحَلَ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ» نموذجاً فريداً يجسد علوّ همتهم. تمثل هذا النموذج في رحلة الصحابي الجليل جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - الذي تجشم عناء السفر لمسافة شهر كامل متوجهاً إلى بلاد الشام.

وكان الدافع وراء هذه الرحلة الشاقة هو التحقق من صحة حديث نبوي يتعلق ب «المظالم»، لم يكن جابر قد سمعه مباشرة من الرسول ﷺ، وعلم أن الصحابي عبد الله بن أنيس الأنصاري - رضي الله عنه - قد تفرد بروايته وسماعه، وخوفاً من فوات العلم أو موت أحدهما قبل توثيق الرواية، اشترى جابر بعيراً وشد رحاله إليه، وعند وصوله الشام واستقبال عبد الله بن أنيس له بالترحاب والاعتناق، استمع جابر منه للحديث الشريف الذي يصور مشهد الحشر يوم القيامة.

وقد تضمن متن الحديث الذي رواه ابن أنيس تصويراً مهيباً ليوم البعث، حيث يحشر الله سبحانه وتعالى العباد حفاة عراة غير مختونين (غُرلاً)، ولا يملكون من حطام الدنيا شيئاً (بُهماً)، وفي ذلك الموقف العظيم، ينادي الخالق عز وجل بصوت يسمعه القاصي والداني معلناً أنه «الملك الديّان»، ومؤكداً على إقامة العدل المطلق؛ إذ لا يدخل أحد الجنة أو النار وعليه مظلمة لآخر، حتى وإن كانت تلك المظلمة يسيرة بمقدار «لطمة»، وعندما تساءل الصحابة عن كيفية القصاص في ذلك اليوم وهم يحشرون مجردين من كل شيء، بيّن النبي ﷺ أن القضاء وتصفية

(١) الرحلة في طلب الحديث، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: نور الدين عتر، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٥هـ، (مقدمة المحقق).

الحقوق والمظالم بين العباد حينها لن يكون بالمال والمتاع، وإنما سيكون من خلال مقاصة الحسنات والسيئات.(١)

- نموذج آخر للرحلة في طلب الحديث الواحد (رحلة أبي أيوب الأنصاري):

لم تقتصر الرحلات الشاقة لتوثيق السنن على جابر بن عبد الله فحسب، بل ضرب الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - مثلاً رائعاً آخر في شدّ الرحال؛ إذ سافر من المدينة المنورة إلى مصر خصيصاً للقاء الصحابي عقبة بن عامر - رضي الله عنه - . وكان مسعاه من هذه الرحلة الطويلة هو الاستيثاق من حديث نبوي شريف يتعلق بفضيلة «ستر المسلم»، حيث أيقن أبو أيوب أنه لم يعد هناك على قيد الحياة من سمع هذا الحديث مباشرة من الرسول ﷺ سوى عقبة وسواه.

وعند وصوله إلى الأراضي المصرية، قصد أولاً دار أميرها آنذاك، مسلمة بن مخلد الأنصاري، الذي استقبله بحفاوة بالغة وعانقه متسائلاً عن سبب هذه الزيارة المفاجئة، فأخبره أبو أيوب بمقصده العلمي والتمس منه إرسال دليل يرشده إلى سكن عقبة بن عامر، وحين بلغ عقبةَ خبرُ وصول أبي أيوب، سارع لاستقباله والترحيب به، ليسأله مستفسراً عن سبب قدومه، فأجابه بأنه جاء يسأله عن لفظ حديث النبي ﷺ في ستر عورات المسلمين.

وقد أكد له عقبة بن عامر سماعه للحديث النبوي الذي يقرر فيه النبي ﷺ جزاءً عظيماً لمن يستر عثرات وعيوب إخوانه المسلمين (الخُربة) في الحياة الدنيا، مبيناً أن مكافأته تكون بستر الله تبارك وتعالى لذنوبه وعيوبه في الآخرة، وبمجرد أن سمع أبو أيوب اللفظ ووثق روايته قائلاً: «صدقت»، بادر فوراً بالانصراف قاصداً راحلته وقفل عائداً إلى المدينة المنورة دون إبطاء، حتى إن الهدية والصلة المالية (الجائزة) التي بعث بها أمير مصر مسلمة بن مخلد إكراماً له، لم تلحق به وتدركه إلا عند منطقة «عريش مصر» وهو في طريق عودته(٢).

وكان الخطيب البغدادي من أبرز من استثمر هذا التراث الرحلي في التأليف، وهو كتاب صغير في حجمه، عظيم في فائدته، جمع فيه الخطيب الأحاديث والآثار المتعلقة بالحضّ على الرحلة في سبيل العلم، مع ذكر أخبار رحلات المحدّثين.

(١) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ١٠٩ فما بعدها)
(٢) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ١١٨)

واعتمد الخطيب على: كتب السنن والمسانيد، وأقوال السلف من الكتب التاريخية، ومروياته بالسماع عن شيوخه، ومشاهداته الشخصية أثناء الرحلة.

ونحن نقرأ كتب الخطيب البغدادي نلمس التركيز على: الرحلة وأثرها في ضبط الرواية، وأهمية اللقاء المباشر بين الراوي والمرويّ عنه، وأثر الرحلة في تنقية الأسانيد، والرحلة وأثرها في تنوّع مصادر التلقي، وتوسّع دائرة السماع، و أنواع الرحلة عند المحدثين: الرحلة القصيرة والبعيدة، والرحلة الفردية والجماعية، والرحلة الموسمية والمتخصصة.

فعن انتقال الرواية بين الأمصار، عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ عَمَّنْ طَلَبَ الْعِلْمَ تَرَى لَهُ أَنْ يَلْزَمَ رَجُلًا عِنْدَهُ عِلْمٌ، فَيَكْتُبُ عَنْهُ أَوْ تَرَى أَنْ يَرْحَلَ إِلَى الْمَوَاضِعِ الَّتِي فِيهَا الْعِلْمُ فَيَسْمَعُ مِنْهُمْ؟، قَالَ: يَرْحَلُ يَكْتُبُ عَنِ الْكُوفِيِّينَ وَالْبَصْرِيِّينَ، وَأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ يُشَامُّ النَّاسَ يَسْمَعُ مِنْهُمْ(١).

وتتضح القيمة العلمية لكتاب الخطيب في خدمة منهج التدوين، وإسهامات الكتاب في بيان قواعد التلقي، إضافات الخطيب مقارنة بغيره من المصنفين، وتأكيد مركزية الرحلة في تكوين علوم الحديث، وكشف الدقة المنهجية للخطيب في هذا الكتاب، وبيان القيمة العلمية للروايات التي جمعها الخطيب بوصفها شاهدًا على حركة العلم في القرون الأولى.

ومما ساعد على تقريب وجهات النظر بين المجتهدين في هذا العصر أن كل قطر من الأقطار المفتوحة وجدت فيه أحكام لم تكن موجودة في غيره؛ نظرا لاختلاف البيئات والفوارق الإقليمية، فلقد أحس العلماء في كل إقليم بحاجتهم إلى التعرف على ما في الإقليم الآخر من اجتهادات فقهية، فنشأت الرحلات العلمية، فالشافعي رحل إلى المدينة والعراق ومصر، وربيعة الرأي رحل إلى العراق، ورحل محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة إلى المدينة، ورحل أحمد بن حنبل إلى الحجاز وإلى اليمن، فآتت هذه الرحلات ثمراتها في إزالة كثير من أوجه الخلاف، وأشعرت كلا بحاجته إلى ما عند غيره من العلم والفقه.(٢)

(١) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ٨٨)

(٢) مجلة البحوث الإسلامية - مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المؤلف: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، عدد الأجزاء: ٩٥ جزءا، ١٥ / ١٣٤.

المطلب الثالث: أثر الرحلات العلمية في تدوين الحديث

وعن أهمية الارتحال لطلب العلم وملاقاة العلماء عند الإمام أحمد: حرص علماء الحديث على تبيين المنهج الأمثل في تحصيل العلوم الشرعية وتوثيق الروايات؛ ينقل عبد الله بن أحمد بن حنبل تساؤلاً طرحه على والده الإمام أحمد يتعلق بالمقارنة بين وسيلتين من وسائل الطلب: هل الأفضل لطالب العلم الاستقرار وملازمة عالم واحد والاستفادة من معارفه ومصنفاته، أم أن الأفضل له هو الارتحال والتنقل بين الحواضر العلمية للاستماع من شيوخها؟.

وقد جاءت إجابة الإمام أحمد بن حنبل مرجّحة بوضوح لخيار السفر والارتحال؛ حيث حثّ طالب العلم على عدم الاكتفاء بالبلد الواحد أو الشيخ الواحد، بل السفر للكتابة عن علماء الأمصار المختلفة كالكوفة، والبصرة، والمدينة المنورة، ومكة المكرمة. ولم يقتصر توجيهه على مجرد السماع والكتابة فحسب، بل أشار إلى أهمية الاحتكاك المباشر بالعلماء ومعاشرتهم ومعرفة مناهجهم وطبائعهم (وهو ما يُعبّر عنه ب «مُشامّة الناس»)؛ لما في ذلك من صقلٍ لشخصية الطالب العلمية والحديثية، وتوسيع لآفاق فهمه وروايته. (١).

ويَحْيَى بْنَ مَعِينٍ، يَقُولُ: أَرْبَعَةٌ لَا تُؤْنِسُ مِنْهُمْ رُشْدًا: حَارِسُ الدَّرْبِ، وَمُنَادِي الْقَاضِي، وَابْنُ الْمُحْدِثِ، وَرَجُلٌ يَكْتُبُ فِي بَلَدِهِ، وَلَا يَرْحَلُ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ (٢).

أثر الرحلة في ضبط الرواية وتلقيها عن المتقنين: يظهر أثر الارتحال جلياً في تمكين طالب العلم من الوصول إلى الحفاظ المتقنين لضبط مروياته والاستيثاق منها؛ وفي هذا الصدد، ينقل الفضل بن زياد توجيهاً منهجياً للإمام أحمد بن حنبل يبرز هذا المعنى، فعندما استشاره أحد طلاب العلم وسأله عن الشخصية الأجدر والأنسب للكتابة عنها وتلقي الحديث منها، وجّهه الإمام أحمد مباشرة إلى تكبد عناء السفر والرحلة للقاء المحدث «أحمد بن يوسف»، واصفاً إياه ب «شيخ الإسلام»؛ إشارةً إلى علوّ كعبه في الحفظ، ومكانته الرفيعة في الضبط والإتقان التي تستحق الرحلة إليه وتلقي العلم عنه.(٣)

وقد أثمرت الرحلة في تعزيز الضبط ؛ إذ مكّنت الطالب من سماع الحديث من أفواه الشيوخ، ومعرفة اختلاف الروايات، ومقارنة الألفاظ، والاطلاع على النسخ الأصلية.

(١) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ٨٨)
(٢) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ٨٩)
(٣) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ٩١)

موسوعية ابن المبارك في الطلب والترحال بشهادة الإمام أحمد: يُقدّم الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - شهادةً تاريخيةً ومنهجيةً رفيعة تُبرز علوّ كعب الإمام عبد الله بن المبارك في طلب العلم؛ حيث اعتبره الشخصية الأكثر شغفاً بالطلب والبحث في عصره، ويُرجع الإمام أحمد هذا التميز إلى كثرة أسفار ابن المبارك وتجاوز رحلاته للحدود الجغرافية المعتادة، إذ طاف بأهم الحواضر العلمية في العالم الإسلامي آنذاك، فارتحل إلى اليمن، ومصر، والشام، والبصرة، والكوفة.

ولم تقتصر ميزة ابن المبارك على كثرة الترحال فحسب، بل تميز بمنهجه الفريد وتواضعه العلمي في تلقي المعرفة وروايتها؛ فلم يمنعه فضله ونبله من الكتابة والتدوين عن الجميع دون استعلاء، فسمع وكتب عن كبار الشيوخ كما كتب عن الأصاغر والأقران، ومن ذلك روايته وتلقيه عن علماء بارزين ومتقنين مثل عبد الرحمن بن المهدي ومروان بن معاوية الفزاري. وبفضل هذا المنهج الشمولي والحرص البالغ، استطاع ابن المبارك أن يجمع ويصنف ثروةً علميةً وحديثيةً هائلةً وموسوعية قلّ نظيرها(١).

وأدت الرحلة إلى تكوين المراكز العلمية كالحجاز، والعراق، والشام، ومصر، وخراسان، كما ساعدت على تشكيل علاقات علمية تفاعلية بين المحدّثين.

وكان من لوازم الرحلة معرفة أحوال الرواة، فالكثير من أقوال الجرح والتعديل إنما نتجت عن الاختبار المباشر للرواة أثناء الرحلات، كقول يحيى بن معين: «كتبتُ عن ألف شيخ وكشفت أحوالهم».

المطلب الرابع: الرحلة وانتقاء الشخصيات

قال مَعْمَرٌ: قَالَ لِي أَيُّوبُ: «إِنْ كُنْتَ رَاحِلًا إِلَى أَحَدٍ فَارْحَلْ إِلَى ابْنِ طَاوُسٍ، وَإِلَّا فَالْزَمْ تِجَارَتَكَ»(٢).

ومنها الرحلة لملاقاة كبار الصحابة في العصر الراشدي: ينقل عبد الله بن أحمد بن حنبل في مسنده عن أبيه، بسند يمتد عبر عبد الصمد عن همام عن عاصم بن بهدلة، قصة رحلة ووفادة التابعي الجليل زر بن حبيش. حيث تشير هذه الرواية إلى أن زر بن حبيش قد ارتحل ووفد إلى

(١) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ٩١)
(٢) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ٩٢)

المدينة المنورة إبان خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - .

ولم يكن دافع هذه الرحلة والوفادة غرضاً دنيوياً، وإنما تكمن قيمتها المنهجية في كونها رحلة علمية بحتة؛ إذ كان الباعث الرئيس والهدف الأساسي الذي حمله على تجشم عناء هذا السفر هو الرغبة الشديدة في ملاقاة كبار الصحابة الأجلاء وتلقي العلم عنهم مشافهة، وفي مقدمتهم مقرئ الأمة الصحابي الجليل أُبيّ بن كعب - رضي الله عنه -، إلى جانب من كان بالمدينة من أصحاب رسول الله ﷺ في ذلك الوقت. (١)

وعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، قَالَ: «كُنَّا نَسْمَعُ بِالرِّوَايَةِ عَنْ أَصْحَابِ، رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ بِالْبَصْرَةِ، فَمَا نَرْضَى حَتَّى أَتَيْنَاهُمْ فَسَمِعْنَا مِنْهُمْ»(٢)

المطلب الخامس: التدقيق في حال الشيوخ الذين يرحل اليهم

وهنا تظهر الصلة بين عدالة الراوي والالتزام بالشعائر عند النقاد: حيث يُقدّم التابعي الجليل أبو العالية نموذجاً عملياً دقيقاً لكيفية تقييم الرواة واختيار الشيوخ قبل تلقي الحديث عنهم؛ حيث يشير إلى أنه كان يتكبد مشاق السفر والترحال مسيرة أيام طويلة للوصول إلى المحدث وسماع مروياته. ومع ذلك، لم يكن مجرد اللقاء بالشيخ كافياً عنده للشروع في السماع، بل كان يخضع الراوي لاختبار سلوكي حاسم قبل تدوين حديثه.

وقد تمثل هذا الاختبار المنهجي في مراقبة مدى تعظيم الشيخ لشعيرة الصلاة والمحافظة عليها؛ فإذا وجده حريصاً على إقامتها في أوقاتها وبشروطها، اطمأن إلى دينه وأمانته وجلس للاستماع منه والكتابة عنه، أما إذا تبين له تهاونه في أدائها أو تقصيره في شأنها، فإنه كان يقرر الرجوع فوراً دون أن يكتب عنه حرفاً واحداً، مستنداً في ذلك إلى قاعدة عقلية ونقدية مفادها: أن مَن تهاون في أداء حق الله الأكبر وضيع عماد دينه (وهي الصلاة)، فإنه سيكون لما سواها من أمور الدين - بما في ذلك حفظ السنة النبوية ونقلها بأمانة ودقة - أكثر تضييعاً وإهمالاً (٣).

(١) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ٩٢)
(٢) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ٩٣)
(٣) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ٩٣)

وعن مكانة معمر بن راشد وريادته في الرحلة والطلب: ينقل الفضل بن زياد شهادة نقدية رفيعة عن الإمام أحمد بن حنبل (أبي عبد الله) تبرز المكانة العلمية السامقة للإمام معمر بن راشد؛ حيث أشار الإمام أحمد إلى تفوق «معمر» الملحوظ عند مقارنته بأقرانه من الحفاظ والمحدثين، معتبراً إياه مقدماً عليهم في الحفظ والضبط. ويُعزى هذا التميز والسبق العلمي إلى ريادته المبكرة في السفر والترحال لجمع السنن؛ إذ يُعد أول من رحل من البصرة إلى بلاد اليمن طلباً للحديث الشريف.

وفي سياق مناقشة حدود رحلات معمر الجغرافية، جرى استفسار من أبي جعفر (محمد بن مهران) للإمام أحمد عما إذا كانت رحلة معمر قد شملت بلاد الشام أيضاً، فنفى الإمام أحمد ذلك، موضحاً أن وجهة رحلته الشمالية لم تكن الشام وإنما اقتصرت على بلاد الجزيرة (الجزيرة الفراتية)، مما يؤكد دقة المحدثين في تتبع المسارات الجغرافية للرواة لتقييم مروياتهم وضبطها(١).

و عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ «مَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ إِلَّا، وَأَنَا أَعْلَمُ، فِيمَا أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ مِنِّي تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ، وَالْمَطَايَا لَأَتَيْتُهُ»(٢).

وأدّت الرحلة إلى اعتماد المحدّثين على الرواية المتصلة وإلى ظهور المصنّفات الكبرى في القرن الثالث الهجري، مثل: الصحيحين، والمسانيد، والمعاجم، والسنن.

المطلب السادس: منهجه في ترتيب مادة الكتاب

من خلال الترتيب الموضوعي ومنهج التعامل مع المرويات ونقدها: يتخذ المؤلف في تصنيف مادته العلمية مساراً تدرجياً يبدأ فيه بتقديم النصوص المرفوعة من الأحاديث النبوية الشريفة، ثم يُتبعها بآثار الصحابة الكرام، لينتقل بعد ذلك إلى استعراض مأثورات السلف وقصص العلماء والزهاد، معتمداً في نقل هذه الأخبار على طريقة الإسناد في غالب مواضع الكتاب.

أما على صعيد النقد والتمحيص العلمي للروايات، فيتجلى منهج المصنف في حرصه على عزو الأسانيد وتتبع رجالها وتوثيق أحوالهم. ولا يقتصر جهده على مجرد السرد، بل يعمد أحياناً إلى الكشف عن علل الأحاديث الخفية وتبيين مراتب الرواة جرحاً وتعديلاً، مع إجراء المقارنات والموازنات بين الروايات المختلفة عند الحاجة؛ وهو ما يعكس تعامله مع الأسانيد بعقلية ناقد

(١) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ٩٤)
(٢) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ٩٥)

بصير وخبير متمرس بصناعة الحديث.

المطلب السابع: موضوعات الكتاب ودلالاتها العلمية

١. الحث على طلب العلم: يُبرز الخطيب أن الرحلة ضرورة لا ترف، مستدلاً بالأحاديث ذات الصلة مثل: عَنْ كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ أَبِي الدَّرْدَاءِ، فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ فَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ: إِنِّي جِئْتُكَ مِنْ مَدِينَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي، أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا جِئْتُ لِحَاجَةٍ، قَالَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»، .[1]

٢. استعراض نماذج تاريخية من رحلات السلف الصالح يعمد المصنف إلى تقديم شواهد تطبيقية حية توثق مسيرة الارتحال عند الرعيل الأول؛ حيث يستحضر رحلة الصحابي جابر بن عبد الله، ورحلة أبي أيوب الأنصاري، وصولاً إلى رحلة الإمام أحمد بن حنبل إلى بلاد اليمن، والذين تجشموا جميعاً مشاق السفر الطويل بغية سماع واستيثاق حديث نبوي واحد. ومن خلال هذه النماذج الفريدة، يؤكد الكتاب على الموقعية المركزية للرحلة والترحال باعتبارها ركيزة أساسية لا غنى عنها في تكوين الشخصية العلمية والحديثية للمحدّث.

(١) سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، رقم (٣٦٤١)، ٣ / ٣١٧ ؛وينظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، ٣٦ / ٤٦ ؛ وسنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥، (٢٦٤٦)، ٥ / ٢٨.

٣. انعكاس الرحلة على توثيق السنة وضبط مروياتها يفصل الخطيب البغدادي الأثر المنهجي والعملي للارتحال في صيانة السنة النبوية؛ إذ يوضح أن تعدد مجالس السماع وملاقاة الحفاظ في مختلف الأمصار يثمر فوائد نقدية جليلة، تمثلت في تمكين الطالب من تحقيق أعلى درجات الضبط والاتقان، وإتاحة الفرصة لاختبار أمانة الرواة وسلوكهم عن قرب، فضلاً عن الوقوف على الفروق واختلاف النسخ الخطية، واستيعاب طرق الحديث الشريف وأسانيده المتنوعة لتمييز صحيحها من سقيمها.

٤. دور الارتحال في صياغة البعد الأخلاقي والسلوكي للعالم لا تتوقف مكتسبات الرحلة عند الجانب المعرفي التوثيقي فحسب، بل يبرز الكتاب أثرها البالغ في صقل المرتكزات الأخلاقية والنفسية لطالب العلم؛ فمكابدة السفر تحفز فيه قيم الصبر والجلد في مواجهة الشدائد، وتدفعه لبذل الغالي والنفيس من ماله ووقت في سبيل المعرفة. كما ترسخ في نفسه فضيلة التواضع العلمي من خلال التلقي عن الأقران والأصاغر، مما يحول المعرفة النظرية إلى ممارسة سلوكية وتعلم عملي واقعي.

المطلب الثامن: القيمة العلمية لكتاب الخطيب وأثره في تدوين العلوم الحديثية

١. أفاد منه العلماء في كتب المصطلح مثل النووي وابن حجر في تقرير قاعدة «الرحلة شرط في تحصيل علل الحديث».[١]

٢. اعتمده المؤرخون في كتب التراجم في تتبع رحلات العلماء، ولا سيما في القرنين الرابع والخامس الهجريين.

٣. صار الكتاب مرجعاً في مناهج التعليم ومنها مقررات مصطلح الحديث، وفي فهم المدرسة البغدادية في نقد الرواية.

٤. قدّم الخطيب صورة واقعية في فهم الجانب العلمي للمجتمع الاسلامي: أسفاره، ومكابده، وحلقاته، وطرق تحمله، مما زوّد الباحثين بمعطيات تاريخية نادرة.

(١) نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، الناشر: مطبعة سفير بالرياض - الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ، ص٢٦٤.

المطلب التاسع: تقويم منهج الخطيب في كتابه

فمن حيث نقاط القوة، تضمن منهجا نقديا رصينا، وشمولا في الأمثلة، ودقة في الاختيارات، أما الملاحظات العلمية على منهج الخطيب، فنلاحظ عدم التعليق على جميع الأحاديث من حيث الصحة، واعتماد أخبار لا تُعلم إلا من طريقه، مما يتطلب تريثاً في القبول، ومحدودية حجم الكتاب رغم ثراء المادة.

الخاتمة

خلص البحث إلى أن الرحلة العلمية كانت حجر الأساس في تدوين العلوم عموما وعلوم السنة خصوصا، وأنها أسهمت في تشكيل المدرسة النقدية الإسلامية، وفي بناء شبكات معرفية واسعة في العالم الإسلامي، ويظهر من خلال كتاب الرحلة في طلب الحديث أنّ الخطيب البغدادي قدّم رؤية منهجية متكاملة لفقه الرحلة، وجمع بين الرواية والدراية، وشيّد نموذجاً فريداً في التأريخ للرحلة العلمية وأثرها في تشكيل علوم السنة.

ويؤكد البحث أن الكتاب ليس مجرد جمع للروايات، بل يمثل تحليلاً منهجياً متقدماً لمفهوم الرحلة وغاياتها وأثرها على صناعة الحديث.

أسهمت الرحلات العلمية في التدوين عبر توثيق المعلومات المباشرة، كنقل المعرفة بين المناطق، وتوسيع آفاق الرحالة معرفيًا، وأدت هذه الرحلات إلى حفظ العلوم ونشرها، كما ساهمت في إثراء أدب الرحلات الذي يقدم معلومات تاريخية واجتماعية وثقافية فريدة لم تكن متاحة في الوثائق الرسمية.

أما عن أثر الرحلات العلمية في التدوين، فكان هناك توثيق مباشر للعلوم: حيث سهّلت الرحلات العلمية على العلماء لقاء مشايخهم وأخذ الأحاديث والروايات مباشرة منهم، مما أسهم في إنشاء سلاسل رواة موثوقة وتوثيق علم الحديث بدقة.

وللرحلات العلمية أثر واضح في نقل المعرفة والثقافة، حيث مكّنت من نقل المعرفة بين مختلف مراكز العلم في العالم الإسلامي، مثل نقل علوم المشرق إلى الأندلس.

استلهم المؤرخون من رحلاتهم إثراء كتب التاريخ والسير لتدوين تاريخ مدنهم وأحداثها .

اكتسب الرحالة معارف جديدة من خلال مشاهدة عادات الشعوب المختلفة، ومدارسهم، وأنظمتهم، مما ساهم في إثراء كتاباتهم وتوسيع آفاقهم الفكرية.

أصبح لأدب الرحلات دور مهم في تدوين المشاهدات والانطباعات الشخصية والاجتماعية والثقافية، مما يجعله مصدرًا فريدًا لفهم عصره.

أسهمت الرحلات في توطيد العلاقات الثقافية والفكرية بين مختلف البلدان، وتعزيز الشعور بالوحدة الإسلامية في الجوانب الثقافية.

قائمة المصادر والمراجع

- تدريب الراوي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١ هـ)، الناشر: مكتبة الرياض الحديثة – الرياض، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف .

- تدوين السنة النبوية نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع الهجري، أبو ياسر محمد بن مطر بن عثمان آل مطر الزهراني (المتوفى: ١٤٢٧هـ)، الناشر: دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .

- التعريفات الفقهية، محمد عميم الإحسان المجددي البركتي، الناشر: دار الكتب العلمية (إعادة صف للطبعة القديمة في باكستان ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: د. محمود الطحان، الناشر: مكتبة المعارف – الرياض، (بَابُ الرِّحْلَةِ فِي الْحَدِيثِ إِلَى الْبِلَادِ النَّائِيَةِ لِلِقَاءِ الْحُفَّاظِ بِهَا) .

- رحلة العلماء في طلب العلم، ماجد إسلام البنكاني، المصدر: الشاملة الذهبية .

- الرحلة في طلب الحديث، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: نور الدين عتر، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٥هـ، (مقدمة المحقق).

- الرحلة في طلب الحديث، د. فاضل إسماعيل خليل، مجلة آداب البصرة، العدد (٣٨) السنة ٢٠٠٥م .

- - سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت .

- - سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج

٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥

- سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

- شرح (التبصرة والتذكرة = ألفية العراقي)، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفى: ٨٠٦هـ)، المحقق: عبد اللطيف الهميم - ماهر ياسين فحل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .

- صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، عبد الفتاح أبو غدة الحلبي الحنفي (المتوفى: ١٤١٧ هـ)، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية مزيدة ومحققة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

- الفصل للوصل المدرج في النقل، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: محمد بن مطر الزهراني، الناشر: دار الهجرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ١ / ٣٨

- مبارق الأزهار في شرح مشارق الأنوار، ل عبد اللطيف بن عبد العزيز بن أمين الدين بن ملك المتوفى سنة (٨٠١) للهجرة، ماهر طاهر إسماعيل البرزنجي، المصدر: الشاملة الذهبية.

- مجلة البحوث الإسلامية - مجلة دورية تصدر عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المؤلف: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد .

- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي الفارسي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: د. محمد عجاج الخطيب، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: الثالثة .

- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت .

- معرفة أنواع علوم الحديث، ويُعرف بمقدمة ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن، أبوعمرو، تقي الدين المعروف بابن الصلاح (المتوفى: ٦٤٣هـ)، المحقق: نور الدين عتر، الناشر: دار الفكر - سوريا، دار الفكر المعاصر – بيروت، سنة النشر: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

- مقدمة ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ) ط١، مؤسسة الرسالة ناشرون(بيروت - ٢٠٠٧م) .

- نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، الناشر: مطبعة سفير بالرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ .